بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، قال رحمه الله تعالى :

وقد ذهب أن هذه الأحاديث المذكورة أولا ، وما في معناها كانت قبل نزول الفرائض والحدود ، منهم الزهري والثوري وغيرهما .

وهذا بعيد جدا ؛ فإن كثيرا منها كان بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود ، وفي بعضها أنه كان في غزوة تبوك ، وهي في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء منهم من يقول في هذه الأحاديث أنها منسوخة ، ومنهم من يقول : هي محكمة ، ولكن ضم إليها شرائط ، ويلتفت هذا إلى أن الزيادة على النص هل هي نسخ أم لا ؟ والخلاف في ذلك بين الأصوليين مشهور .

وقد صرح الثوري وغيره ، بأنها منسوخة ، وأنه نسخها الفرائض والحدود ، وقد يكون مرادهم بالنسخ البيان والإيضاح ؛ فإن السلف كانوا يطلقون النسخ على مثل هذا كثيرا ، ويكون مقصودهم أن آيات الفرائض والحدود تبين بها توقف دخول الجنة والنجاة من النار على فعل الفرائض ، واجتناب المحارم ، فصارت تلك النصوص منسوخة ، أي مبينة مفسرة ونصوص الفرائض والحدود ناسخة أي مفسرة لمعنى تلك ، موضحة لها .

الشرح :

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه .

.....

تقدم لكم جوابان أو مذهبان في هذه النصوص ، الدالة على أن التوحيد موجب لدخول الجنة ، وأن الشهادتين من مات عليهما دخل الجنة ، أو أنه لا يعذب ، أو أنه محرم على النار ، والنار محرمة عليه ، تقدم قول ابن رجب رحمه الله ، أن الأحاديث التي فيها الوعد بدخول الجنة محتملة أن يكون هذا الدخول في أول الأمر أو بعد التطهير . ولكن الذي فيه الإشكال ، هو ما فيه نفي العذاب ، من أنه لا يعذب ، أو أنه حرم علي النار ، أو أن الله حرمه على النار .

فذكر قول من يتأول هذا النفي ، على نفي الخلود ، لا نفي العذاب وتحريم دخول النار ، فيكون تحريم الخلود في النار ، أو أن النار المراد بها النار التي يخلد فيها من دخلها .

والجواب الثاني ، وهو أحكم ، وأرجحه ، وهو أن المراد من هذه الأحاديث أن التوحيد مقتضٍ لدخول الجنة والنجاة من النار ، وسبب ، بل هو السبب الأعظم ، ولكن أي سبب فإنه يتوقف حصول مسببه على وجود الشروط وانتفاء الموانع .

فالتوحيد إذاً لا يتحقق مقتضاه بالنجاة من النار مطلقا ، ودخول الجنة من أول وهلة ، إلا بوجود شروط وانتفاء موانع ، وذلك أن هذا مشروط بفعل الفرائض واجتناب المعاصي ، جمعا بين الأدلة ؛ لأن نصوص الوعيد مستفيضة في الكتاب والسنة ؛ففي القرآن وعيد على كثير من الذنوب ؛ كالربا ، وقتل المؤمن ، والتولي يوم الزحف ،السبع الموبقات المذكورة في عهد نبينا صلى الله عليه وسلم ، كل هذا ورد الوعيد عليه في القرآن ، فلا يجوز إهدار هذه

.....

النصوص وإبطال دلالتها تمسكا بهذه الأحاديث المحتملة المطلقة ، لابد من رد النصوص بعضها إلى بعض لجمع بينها ، إما بحمل المطلق على المقيد ، أو حمل العام على الخاص ، كما هو معروف ومقرر في علم الأصول .

المذهب الثالث : قول طائفة أن هذه الأحاديث ، إنما وردت قبل نزول الفرائض ، ونسبه المصنف للزهرى ، وأبو سفيان الثوري ، وكذلك نسب إلي سعيد بن المسيب وغيرهم . رحمهم الله . وضعف المصنف هذا المذهب ، وهو كما قال : هذا القول غير صحيح .

ومعنى هذا القول أن هذه النصوص وردت في مكة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ذلك في مكة ، وهذا لا يستقيم أبدا ؛ فالذين رووا هذه الأحاديث وسمعوها ونقلوها . وكان ذلك في المدينة . منهم من لم يسلم إلا متأخرا كأبي هريرة ، وقد باشر هذا ، فرواه مباشرة عن النبي عليه الصلاة والسلام .

ومنها . كما أشار المؤلف . ما وقع في غزوة تبوك ، وهي متأخرة ؛ إذاً فهذا القول لا يستقيم ، ولا يصح أن يطلق القول بأن هذه الأحاديث إنما وردت قبل نزول الفرائض ، إذًا هذا القول لا يصح جوابا عنها .

يقول المؤلف : إن بعض أولئك . يعني بعض القائلين بهذا القول . من يطلق لفظ النسخ ، يقول : أن هذه النصوص منسوخة ، يعني هذه الأحاديث نسختها نصوص الفرائض ونصوص الحدود ، والوعيد على الذنوب وهذا يرد عليه أن هذه أخبار ، والأخبار لا يرد عليها النسخ .

ولكن الأئمة . كالثوري . ممن روى عنه أنه أطلق القول بالنسخ ،وينبغي أن

.....

يوجه كلامه إلى ما ذكره المؤلف ، أن النسخ في عرف كثير من السلف يريدون به البيان والإيضاح ، فيطلقون النسخ على تقييد المطلق وتخصيص العام ، يقولون : هذا ناسخ ، يعني مخصص ، وهذا ناسخ ، يعني مقيد ، وهذا منسوخ يريدون به العام المخصوص أو المطلق الذي ورد ما يقيده .

فليس إذًا مرادهم بالنسخ هو رفع حكم الدليل المتقدم بدليل متأخر ، كما هو اصطلاح الأصوليين المتأخرين .

وقد يجري على مذهب من يقول من الأصوليين : إن الزيادة على النص نسخ ، هذا مذهب معروف ومشهور عند الحنفية ، أن الزيادة عن النص نسخ .

وحَمْلُ كلام الأئمة والسلف على التوجيه الأول أولى ؛ لأن الذين يقولون من الأصوليون أن الزيادة على النص نسخ ، هم يريدون بها حقيقة النسخ ، من أنه يرفع حكم المتقدم ،وهي حقيقة النسخ المعروفة لدى الأصوليين .

ولهذا قال من قال من الفقهاء . وهو كما ذكرت مشهور عند الحنفية . قالوا : إن زيادة حكم التغريب على الجلد في حد البكر نسخ ، في حد البكر بمائة جلد ، فالتغريب زيادة على الذي في القرآن : **[الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة]** [النور : 2] ، قالوا : إن هذا زيادة على النص ، والزيادة على النص نسخ ولا يجوز نسخ القرآن بالسنة .

المقصود ، أقول : إن حمل كلام الثوري ونحوه من أن هذه النصوص نسختها الفرائض ، حمله على أنها بينتها وفسرتها ووضحتها وقيدتها ، هو اللائق ، وهذا هو المناسب ، وهذا ما رجحه المصنف رحمه الله .

.....

فإذا قيل : إن هذه النصوص ليست على الإطلاق ، إنما هي مبينة ، ويجب أن ترد إلى النصوص الأخرى استقام الأمر واستقام المذهب ، وحصل رد الشبهة ، أعني شبهة المرجئة ، وتعلقهم بهذه الأحاديث الواردة في فضل التوحيد .

وهذا يكون متفقا في المآل مع الجواب الثاني ، وهو قول من يقول : إن هذه الأحاديث إنما تدل على أن التوحيد سبب للنجاة من النار ، والسبب لابد فيه من وجود الشروط وانتفاء الموانع .

قال المصنف . رحمه الله تعالى . :

وقالت طائفة : تلك النصوص المطلقة ، قد جاءت مقيدة في أحاديث أخر ؛ ففي بعضها ((من قال : لا إله إلا الله مخلصا)) ، وفي بعضها ((مستيقنا)) ، وفي بعضها ((يصدق قلبه لسانه)) ، وفي بعضها ((حقا من قلبه)) ، وفي بعضها ((قد زل بها لسانه واطمأن بها قلبه)) ، وهذه كله إشارة إلى عمل القلب وتحققه بمعنى الشهادتين ، وتحققه بقول لا إله إلا الله ، ألا يأله القلب غير الله ؛ حبا ورجاء وخوفا وتوكلا واستعانة وخضوعا وإنابة وطلبا وتحققه من أن محمداً رسول الله ، ألا يعبد الله بغير ما شرعه الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء هذا المعنى مرفوعا للنبي صلى الله عليه وسلم ، صريحا أنه قال : ((من قال : أن لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة)) ، قيل : ما إخلاصها يا رسول الله ؟ ، قال : ((أن تحجزك عن كل ما حرم الله عليك)) ، وهذا يروى من حديث أنس بن مالك ، وزيد بن أرقم ، ولكن إسنادهما لا يصح . وجاء أيضا من مراسيل الحسن نحوه .

الشرح :

جواب رابع ، وهو أن هذه الأحاديث ورد ما يقيدها ، فهي جاءت مطلقة ، ولكن ورد التقييد في جملة أحاديث أشار المؤلف إليها ، والمحقق عندكم قد أحسن في تخريجها .

وكل حديث يرد فيه ذكر الوعد على مجرد قول : لا إله إلا الله ، فلابد أن يقيد بمثل هذه الأحاديث التي فيها ذكر اليقين ، أو ذكر الإخلاص ، أو ذكر الاستيقان ، مع أن هذه الأحاديث نفسها التي مرت بنا ، التي هي محور البحث

.....

ومناط الكلام ، نجد أن هذه القيود موجودة فيها أو في بعضها ، ((إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)) قوله : ((يبتغي بذلك وجه الله))، هذا هو معنى الإخلاص ، إذًا القيد موجود ، وهذه القيود التي أشار إليها المؤلف هي موجودة في هذه الأحاديث ، بعضها صريح وبعضها مفهوم ، قلت لكم : إن لفظ الشهادة ، كما هو في قوله : ((من شهد أن لا إله إلا الله)) فالشهادة تتضمن العلم واليقين ، والصدق ؛ فالذي قال هذا بلسانه دون قلبه ، لم يشهد ، ومن علم معناها وقالها بلسانه ، غير صادق أيضا ، بل قال ذلك نفاقا لم يقله عن انقياد ، لم يكن بذلك مخلصا ، وفي الحديث ((يبتغي بذلك وجه الله)) ، وقالها يبتغي بذلك وجه الله ، فما قالها إلا وهو موقن غير شاك ، ومن شأنه أن يزل بها لسانه ، ويلهج بها حبا لها ، وطمأنينة قلبية لما دلت عليه هذه الكلمة .

فمن قالها على هذا الوجه ، على وجه العلم واليقين بشروطها التي سبق ذكرها ، فإن التوحيد يمنعه من الإصرار على الذنوب ، مِنْ ترك واجب ، أو فعل محرم ، فمن قال : لا إله إلا الله على وجه اليقين التام والصدق ، والإخلاص التام والطمأنينة ، لابد أن يؤدي الفرائض ويجتنب المحارم ، ومتى قصر في شيء من ذلك ، فإنما أُتِيَ من نقص علمه ، ونقص يقينه ، ونقص إخلاصه ، ونقص محبته ؛ فإن هذه المعاني تتفاضل من شعب الإيمان ، وهي تتفاضل بالقوة والضعف .

فمن قال : لا إله إلا الله ، صادقاً غير منافق ، عالما ليس بجاهل ، قامت به هذه الشروط ، له حالات :

.....

إما أن تكون هذه المعاني قامت بقلبه على وجه الكمال ، فلابد أن يظهر أثر ذلك على الجوارح ، بفعل الفرائض واجتناب المحرمات .

إما أن تقوم بقلبه على ضعف ، فيكون أثر ذلك على جوارحه بحسب ذلك ، ومنه يحصل الخلل .

واعتبروا هذا في حديث الشفاعة ، فيمن يخرج من النار ، ((أخرجوا من النار من قال : لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال ذرة . أو برة أو خردلة . من إيمان)) هذا الذي يخرج من النار ، لاشك أنه لم يقلها كذبا ، ولم يقلها غير عالم بمعناها مطلقا ، ولم يقلها نفاقا ، بل كان فيها مخلصا ، لكن ما معه من العلم بمعناها والإخلاص في قولها والمحبة لم يبلغ المرتبة التي بلغها أهل الإيمان الكمل الذين نجوا ، أو نجاهم الله بكمال إيمانهم وتوحيدهم من النار ، فلم يتعرضوا للعذاب .

فلابد من ملاحظة هذا المعنى ، وأن هذه المعاني التي يعدها العلماء شروطا أنها متحققة لكل أهل التوحيد ، أهل التوحيد الذين ينفعهم توحيدهم في الخروج من النار ، إلا أنهم متفاوتون ، فالكمل منهم في هذه المعاني هؤلاء يمنعهم توحيدهم من دخول النار ، إذًا فيمن قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام : ((إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله)) ؟ حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ، نعلم أن المراد (من قالها) على الوجه الأكمل وقد تبين فيه شروط التوحيد المأخوذة من سائر النصوص .

.....

وقد عقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بابا سماه (الباب من حقق التوحيد دخل الجنة من غير حساب ولا عذاب) فمن كملت له هذه المعاني في قلبه ، لابد أن يرى أثرها على جوارحه فعلا وأداء للفرائض واجتناباً للمحرمات ، فالتوحيد الكامل ، يمنع من الإصرار على شيء من الذنوب ؛ لأن في قلب العبد من خوف الله ورجاء ثوابه ، ما يوجب له الفزع إليه ، والرجوع إليه سبحانه وتعالى .

فهذه جملة أجوبة أهل العلم عن هذه الأحاديث ، فأهل السنة والجماعة كلهم يتفقون على أن هذه الأحاديث ليست على ظاهرها الذي يدعيه أو يفهمه المرجئة أو المغرورون من جهلة أهل السنة مثلا ، كما سبقت الإشارة في هذا المعنى .

وهناك جواب خامس ، ونقله لكم المحقق ، ونسب إلى البخاري ، وهو حمل كلمة التوحيد على من قالها نادما تائبا ، أي من قال هاتين الشهادتين نادما على ما سلف من ذنوبه ، تائبا .

وهذا المعنى قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع ، في توجيه بعض هذه الأحاديث ، وتوجيه حديث صاحب البطاقة ؛ بأن المراد من قالها على غاية من الصدق والإخلاص ووجه الكمال والتحقيق بالتوحيد ، ثم لم يرتكب بعد ذلك ذنبا ، فما جاء عن البخاري فيه تقييد هذا بالتوبة ، ومعلوم أن من قال ذلك تائبا نادما على ما سلف من ذنوبه ، ثم بقي على هذه الحال ، فالأمر فيه واضح ، هذا محرم على النار ، والنار محرمة عليه .

.....

ومضمون ومنحى ما ذكرته لكم عن شيخ الإسلام . رحمه الله . ونقله شارح كتاب التوحيد ، أذكر في (فتح المجيد) ، وفي(تيسير العزيز الحميد) ؛ لأنه هو أصله . أن المعنى : من قال هذه الكلمة مخلصا كل الإخلاص ، وصادقا كل الصدق ، ثم مات علي ذلك ؛ لأن هذه الحال توجب ألا يصر على ذنب من الذنوب ، فمن مات على هذه الحال من كمال وتحقيق التوحيد ، كان هذا التوحيد عاصما له من دخول النار ، والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى :

وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه ، أن قول العبد : لا إله إلا الله ، يقتضي أن لا إله له غير الله ، الإله الذي يطاع ولا يعصى ؛ هيبة له وإجلالا ، ومحبة وخوفا ورجاء ، وتوكلا عليه ، وسؤالا منه ودعاء له ، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل ، فمن أشرك مخلوقا في شيء من هذه الأمور ، التي هي من خصائص الإلهية ، كان ذلك قدحا في إخلاصه في قول : لا إله إلا الله ، ونقصا في توحيده ، وكان فيه من عبودية المخلوق ، بحسب ما فيه من ذلك ، وهذا كله من فروع الشرك ، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشأها من طاعة غير الله أو خوفه أو رجائه أو التوكل عليه والعمل لأجله ، كما ورد في إطلاق الشرك على الرياء ، وعلى الحلف بغير الله ، وعلى التوكل على غير الله والاعتماد عليه ، وعلى من سوَّى بين الله وبين المخلوق في المشيئة ، مثل أن يقول : ما شاء الله وشاء فلان ، وكذا قوله : ما لي إلا الله وأنت .

وكذلك ما يقدح في التوكل ، وتفرد الله بالنفع والضر ، كالطيرة والرقى ، والرقى المكروة ، وإتيان الكهان ، وتصديقهم بما يقولون ، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه ، قادحٌ في تمام التوحيد وكماله ، ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من اتباع هوى النفس ، بما هو كفر وشرك ؛ كقتال المسلم ، ومن أتى حائضا ، أو امرأة في دبرها ، ومن شرب الخمر في المرة الرابعة ، وإن كان ذلك لا يخرجهم عن الملة بالكلية ، ولهذا قال السلف : كفر دون كفر ، وشرك دون شرك .

وقد ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع ؛ قال تعالى : [أفرأيت من اتخذ إلهه هواه] ، وقال الحسن : هو الذي لا يهوى شيئا إلا ركبه .

وقال قتادة : هو الذي كلما هوى شيئا ركبه ، وكلما اشتهى شيئا أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى .

وروي من حديث أبي إمامة مرفوعا بإسناد ضعيف : ((ما تحت السماء من إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع)) .

وفي حديث آخر : ((لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن أصحابها حتى يؤثروا دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك ، ردت عليهم وقيل لهم : كذبتم)) ويشهد لذلك الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش)) فدل هذا على أن كل من أحب شيئا وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه ووالي من أجله ، وعادى لأجله ، فهو عبده ، وذلك الشيء معبوده وإلهه .

الشرح :

ومما يوضح ما تقدم من أن مطلق التوحيد ، أو مطلق التكلم بلا إله إلا الله ، لا يكفي في النجاة من النار ، وأن قائليها ، قائلي لا إله إلا الله متفاوتون ، وأن هذه الكلمة لا إله إلا الله . كلمة التوحيد . مركبة من نفي وإثبات كما هو معروف ، نفي إلهية ما سوى الله ، وإثبات الإلهية له سبحانه ، فمضمونها الإيمان بأنه تعالى الإله الحق الذي لا يستحق العبادة سواه ، والإله : بمعنى المألوه ، يعني المعبود ، فهو تعالى هو المعبود بحق ، وهو المستحق للعبادة ، فمعنى هذه الكلمة أن قائلها لا يألـه إلا الله يعني لا يعبد إلا الله ، والعبادة تتضمن شيئين : المحبة ، والذل والإجلال ، كما يقول ابن القيم :

وعابدة الرحمن غاية حبي مع ذل عابدي هم القطبان

.....

لابد من اجتماع الأمرين : المحبة والذل ، أو المحبة والإجلال .

إذًا فحقيقة التوحيد الذي دلت عليه هذه الكلمة : أن العبد لا يألـه إلا الله ، فالله تعالى هو المألوه المعبود بحق ، حبا وخوفا ، ورجاء ، وتوكلا ، ورغبة ورهبة.

فلابد من التحقق من هذه المعاني ، وهذه المعاني .كما تقدم .توجب أفعالا ومتروكات لما تقتضي اجتناب المحرمات ، والمبادرة إلى المأمورات . ولا يكون الإنسان محققا لهذه الكلمة ، إلا إذا حقق من هذه المعاني ، أعني حقق تألهه لله وعبوديته لله .

إذًا هذا التألـه وهذا التعبد ليس على مرتبة واحدة ، فلابد لتحقيق التوحيد من اجتناب المعاصي ، بل لابد من تحقيق التوحيد باجتناب الشرك كله ، الشرك الأكبر وهو عبادة غير الله مع الله ، ودعاء غيره واتخاذ الند له ، فهذا مناقض لأصل التوحيد ، ناقض لهذه الكلمة ، وأما ما دونه من أنواع الشرك الأصغر فإنه يناقض كمال التوحيد الواجب ، كما في الأمثلة التي ذكرها المؤلف ، فهناك أنواع من الذنوب جاء النص بأنها من الشرك ؛ كالرياء ، والحلف بغير الله ، وتسوية المخلوق بالله في المشيئة ، كقول القائل : ما شاء الله وما شيءت ، أو : هذا من الله ومنك ، أو : لولا الله وأنت ، فهذه أنواع من الشرك ، وكالإفراط في حب المحبوبات الطبيعية ، مثل المال ، والولد ، أو حب أعراض الدنيا بأنواعها ، كالدرهم والدينار والخميصة والخميلة ، فهذه محبوبات طبيعية ، فإذا أفرط الإنسان فيحبها فسار يرضى لوجودها ويسخط لعدمها ، إذا أعطي رضي وإذا لم يعط سخط ، صار قلبه معبدًا لها .

.....

يقول المؤلف أنه قد دلت الأدلة على أن كل الذنوب . منها الذنوب التي مصدرها اتباع الهوى . ورد فيها إطلاق اسم الكفر وإطلاق الشرك ، وإن كانت لا تخرج من الملة ، ولا توجب الردة ، لكنها تدل على نقص التوحيد ونقص الإيمان ، فلابد إذاً لتحقيق مقتضى هذه الكلمة لا إله إلا الله لتكون عاصمة من دخول النار وموجبة لدخول الجنة ، لابد من اجتناب كل ما ينافي تحقيق التوحيد ، وينافي كماله ، من أنواع الشرك وأنواع الكفر ، المقصود بالشرك : الشرك الأصغر ، أما الأكبر فإنه مناقض أصلا ، ومن قال هذه الكلمة لا إله إلا الله ثم أتى بناقض فهو كافر مرتد خارج عن ملة الإسلام ، لا ينفعه أنه يقولها بلسانه ؛ لأنه قد انتقض في حقه شرط من الشروط ، فإن الشهادتين تقتضيان تحقيق التوحيد ، وتحقيق المتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فشهادة أن محمداً رسول الله تقتضي تصديق الرسول بكل ما أخبر به وطاعته بكل ما أمر به أو نهى عنه ، وألا يعبد الله إلا بما شرع .

إذاً فالذنوب منها ما يناقض أصل التوحيد ومنها ما يناقض كماله ، كما تقدم .

وقد ذكر المؤلف جملة مما ورد فيه إطلاق اسم الكفر ، عليه ؛ كقتال المسلم ، وإتيان الكاهن ، وإتيان المرأة في دبرها ، أو إتيان الحائض ، ومن هذا الجنس إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب ، والنياح على الميت ، وكل هذه ذنوب تنافي تحقيق التوحيد والإيمان ، فهذه الذنوب منها ما أطلق عليه اسم الشرك ومنها ما أطلق عليه اسم الكفر ، فعلم بهذا أن لا إله إلا الله لها مدلول عظيم ، وأهلها هم متفاوتون فيها ، فأكمل الناس توحيدا هم الرسل ، وأكملهم

.....

أولو العزم ، ثم الناس بعد ذلك على مراتب ، الصديقون والشهداء والصالحون ، ومنهم من دون ذلك ، الظالمون لأنفسهم ، إلى مَنْ ذُكِر حالهم ممن يخرجون من النار بشفاعة الشافعين وبرحمة أرحم الراحمين .

وكلهم يصدق عليهم أنهم موحدون ، وكلهم يقولون لا إله إلا الله ، لكن مع التباين العظيم في العلم بمعناها والصدق والإخلاص في أدائها والعمل بمقتضاها ، وهو تفاوت لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى ، فاتباع الهوى هذا مصدر لكثير من الذنوب ، حتى الشرك يصدر عن اتباع الهوى ، كما قال الله سبحانه وتعالى ، في المشركين : **[إن هي أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم]** [النجم : 23].

ويقول سبحانه وتعالى : **[أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذًا قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس]** [النجم : 19 . 23]

فاتباع الهوى مصدر للذنوب كبيرها وصغيرها ، ولهذا جاء في القرآن إطلاق اسم الإله على الهوى ، وأن من الناس من اتخذ إلهه هواه ، فجعل معبوده هو الهوى ، فمن بلغ به الأمر ، إلى أن يستحل ما يهواه ، ويترك ما لا يهواه بإطلاق فإنه يخرج عن الإسلام بهذا ، ولكن المخلط من المسلمين تجده يتبع هواه في أشياء ويخالف هواه في أشياء ، ولابد أن يخالف هواه في أشياء ، أما من هو متبع لهواه بإطلاق فهذا معناه أنه لا يحل حلالا ، ولا يحرم حراما ، ولا يؤدي فريضة ، بل ولا يؤمن بالله **[أفرأيت الذي اتخذ إلهه هواه وأضله**

.....

الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله] [الجاثية : 23] هذه سمة الكافرين الذين قال الله فيهم : **[طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون]** [النحل : 108] ، وقال سبحانه وتعالى **[ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم]** [البقرة : 7]

فكيف مع هذه النصوص المستفيضة يقال أنه يكفي العبد في دخول الجنة والنجاة من النار أن يقول لا إله إلا الله ، ولا يفعل شيئا ، ولا يقوم بقلبه شيء من محبة الله ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام ، هذا من أبطل الباطل ومن اتباع الهوى ومن الجهل العظيم ، إذًا يؤخذ بظاهر هذه النصوص المزعوم وتهدر دلالة سائر النصوص ، مثل نصوص الوعيد ونصوص النهي عن كثير من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة ؛ فإن الذنوب منها ذنوب قلبية وذنوب قولية ، وذنوب عملية ، عمل الجوارح ، فكلها يدخل فيها الحرام ، أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأقوال اللسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، قال رحمه الله تعالى :

ويدل عليه أيضا أن الله تعالى سمى طاعة الشيطان في معصية عبادة للشيطان ؛ كما قال تعالى : [ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان] [يس : 60] **، وقال حاكيا عن خليله إبراهيم أنه قال لأبيه [يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا]** [مريم : 44] **، فمن لم يحقق عبودية الرحمن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته له .**

ولم يخلص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن ، وهم الذين قال فيهم : [إن عبادي ليس لك عليهم سلطان] [الحجر : 42] **، فهم الذين حققوا قول لا إله إلا الله ، وأخلصوا في قولها وصدقوا قولهم بفعلهم ، فلم يلتفتوا إلى غير الله ، محبة ورجاء وخشية وطاعة وتوكلا ، وهم الذين صدقوا في قول لا إله إلا الله ، وهم عباد الله حقا .**

فأما من قال لا إله إلا الله بلسانه ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته ، فقد كذب فعله قوله ، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى ، [ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله] [القصص : 50] **، [ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله]** [ص : 26]

فيا هذا كن عبد الله لا عبد الهوى ؛ فإن الهوى يهوي بصاحبه في النار ، [ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار] [يوسف : 39] **، تعس عبد**

الدرهم ، تعس عبد الدينار ، والله ما ينجو غدا من عذاب الله إلا من حقق عبودية الله وحده ، ولم يلتفت معه إلى شيء من الأغيار ، من علم أن إلهه ومعبوده فرد ، فليفرده بالعبودية ولا يشرك بعبادة ربه أحدا .

الشرح :

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه .

تقدم تقرير أن لا إله إلا الله لها مدلول ، وهو أن الإله الحق هو الله وأنه مستحق العبادة ، فهو الذي يستحق أن يؤله ، يعني يعبد وحده لا شريك له ، يعبد خوفا ورجاء وتوكلا ورغبة ورهبة واستعانة ، بكل أنواع العبادة الظاهرة والباطنة ، فهو المستحق لها .

وهذه الأمور يتفاضل فيها الناس ؛ فالإيمان يزيد وينقص ، وأعمال القلوب ، أعمال الجوارح تزيد وتنقص ، ولذلك كان الناس أصنافاً ، منهم السابقون في الخيرات ، ومنهم المقتصدون ، ومنهم الظالمون لأنفسهم ، **[ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله]** [فاطر : 32]

وقد تفاضل العباد في إيمانهم وفي طاعتهم وفي سائر أنواع العبادة تفاضلاً لا يعلم مداه إلا الله الذي يعلم ما في القلوب ، ويعلم ما يسره العباد وما يعلنون ، وأيضاً فهناك الذنوب التي تنقص التوحيد ، والإيمان ، ولهذا كما تقدم جاءت النصوص فيها تسمية بعض الذنوب كفرا ، وفي بعضها شركا ، فكما أن شعب الإيمان إيمان فشعب الكفر كفر ، بمعنى أنها من الكفر ، مثاله : اثنتان في الناس هما فيهم كفر سباب المسلم فسوق وقتاله كفر .

.....

ومعنى ذلك إن الذي ينقص تحقيقه لمدلول هذه الكلمة العظيمة : لا إله إلا الله ، يكون قد شابه من الشرك بقدر ما معه من المخالفة ، وقد تقدم ذكر حديث ((تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم .....)) فإنه إذا أفرط الإنسان في المحبة الطبيعية ، خرج إلى نوع من الشرك ، **[قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله]** [التوبة : 24]

هذه آية المحبوبات الثمانية ، إن إيثار هذه المحبوبات قد يصل إلى الكفر وقد يكون دون ذلك ، فكثير من الكفار تركوا الإيمان بالله ورسوله إيثارا للوطن والعشيرة والأهل ، وموافقة لهم ، ومنهم من يؤثر هذه المحبوبات في المعصية ، يؤثرهم ليطيعهم في معصية الله ، فيقدم ما أحبوا على ما أوجب الله سبحانه وتعالى ، وهكذا .

تقدم أن اتباع الهوى هو أصل الشرك بنوعيه الأصغر والأكبر ، كما قال تعالى : **[إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس]** [النجم : 23] .

بعد هذا كله يقول المؤلف : من الدليل على ذلك أن الله سمى طاعة الشيطان عبادة ، وكل معصية هي طاعة للشيطان ، ولكن هناك من عبد الشيطان عبادة صار بها كافرا مشركا ، كعُبَّاد الأوثان ، يقول شيخ الإسلام ، رحمه الله : أصل الشرك عبادة الملائكة والأنبياء والصالحين والأصنام والأحبار والرهبان وغير ذلك ، وأصل الشرك عبادة الشيطان **[وامتازوا اليوم أيها المجرمون ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين]** [يس : 59 , 60]

.....

إن الذي كان من أولئك ، إنما هو الطاعة ، طاعة الشيطان ، أكثر الأمم في الواقع لا تقصد عبادة الشيطان ، عبدت الشيطان بطاعته ، وقال إبراهيم عليه السلام : **[يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا]** [مريم : 44] .

إذًا طاعة الشيطان هي عبادة له ، وهي تختلف كما ذكرت ، فالتأله لله والتعبد له يقتضي طاعته ومحبته وخوفه ورجاءه وإفراده بذلك ، فعبد الله على الحقيقة ، هو الذي يفرد ربه بالطاعة ، ولا يطيع إلا من أمره الله بطاعته من الرسل ، **[من يطع الرسول فقد أطاع الله]** [النساء : 80] ، ويقول نوح عليه السلام **[أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون]** [نوح : 3] وكل من أمر الله بطاعته فطاعته هي طاعة لله في حدود ما أمر الله به بطاعته ، فالعبودية تقتضي كمال الطاعة ، وكمال الحب والذل والإجلال ، وما يتبع ذلك من الخوف والرجاء والتوكل ، فيجب إفراده سبحانه وتعالى ، بالعبادة ، بكل أنواعها الظاهرة والباطنة ، ولا يحقق هذا المقام إلا الذين استثناهم الله بقوله : **[إن عبادي ليس لك عليهم سلطان]** [الحجر : 42] ، وقال سبحانه وتعالى ، عن إبليس : **[فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المُخْلَصِين]** [ص : 82 ، 83] ، وفي قراءة **[المُخْلِصين]** ، فهم مخلِصون لله في أعمالهم ومخلَصون لله ، فهم عباد الله الخُلَّص ، ليس فيهم عبودية لغيره ، وهذا يصدق على الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين ، فهم مخلصون لله في أعمالهم وأقوالهم الظاهرة ، **[فاعبد الله مخلصا له الدين]** .

.....

أما من يتبع هواه فيما يخالف هدى الله فليس بمخلِص ولا مخلَص ، ولو كان عنده شيء من أصل العبودية لله ، فالعبودية لله المتضمنة لمحبته وتعظيمه وطاعته الناس فيها على مراتب ، فأكمل الخلق عبودية لله هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو مقام شريف شرفه الله به ونوه بهذا الوصف **[وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا] [سبحان الذي أسرى بعبده]** ، **[وأنه لما قام عبد الله]** ، وقال سبحانه وتعالى في نوح عليه السلام : **[إنه كان عبدًا شكورا]** ، وقوله : **[فكذبوا عبدنا]** العبودية هنا عبودية خاصة ، فالرسل والأنبياء والصديقون على اختلاف مراتبهم هم الذين حققوا التوحيد وحققوا العبودية لله ، فأخلصوا الدين لله ، فلم تزاحم محبة الله في قلوبهم محبة غيره ، وسيأتي مزيد كلام في المحبة ؛ لأن المؤلف استرسل في هذا كثيرا .

قال المصنف رحمه الله تعالى :

كان بعض العارفين يتكلم على أصحابه على رأس جبل ، فقال في كلامه : لا ينال أحد مراده حتى ينفرد فردا بفرد ، فانزعج واضطرب ، حتى رأى أصحابه أن الصخور قد تدكدكت ، وبقي على ذلك ساعات ، فلما أفاق فكأنه نشر من قبر .

الشرح :

هذا الأثر مما ينقل عن بعض الصوفية ، وهم الذين يتلقبون بهذه الألفاظ : العارف ، و(العارف) ليس من الأسماء الشرعية التي مِنْ مثل : المؤمن ، التقي ، الصالح ، الصديق ، أما المعرفة مطلوبة وهي العلم ، والله أمر بالعلم [**وقل رب زدني علما**] ، لكن لفظ العارف أصبح مصطلحا عند الصوفية يعني المحقق لمقامات ، السير إلى الله وجمع القلب إلى الله ، ولهم مصطلحات كثيرة ، تلميذ الشيخ يسمونه المريد ، يعنون به الذي يتلقى منه التربية في السلوك والعبادة والأعمال ، ولهم مصطلحات بدعية فيما يشرع بزعمهم للسالك ، وهذه القصة يسترشد بها المؤلف ، ولا بأس من الاسترشاد في بعض الأمور التي يقصد منها تقرير أمر صحيح .

وهذا العارف الذي كان يقول في القصة : لا ينال أحد مراده حتى ينفرد فردا بفرد ، هذا من رموزهم وعباراتهم ، وابن القيم نقل في تعريف التوحيد عن بعض شيوخ الصوفية ، . لعله عن الجديد . يقول : التوحيد إفراد القديم عن المحدث ، وشرحه في مدارك السالكين .

حتى ينفرد فردا بفرد : هو يشير في هذا الكلام إلى أنه لا ينال أحد مراده ، يعني لا ينال أحد من العباد والسالكين والسائرين إلى الله ، حتى ينفرد

.....

فردا بفرد ، فالفرد هو الله ، وهذا اللفظ معناه صحيح ، فالله تعالى فرد ، لكن الذي ورد في أسمائه الأحد والواحد ، أما الفرد فلا أعرف أنه ورد فيه شيء من النصوص ، لكن معناه صحيح .

وكثيرا ما يجري على لسان بعض أهل العلم أنه سبحانه وتعالى أحد فرد صمد ، يعني أحد واحد ؛ لأن الفرد بمعنى الواحد . و((حتى ينفرد)) : يعني هذا الواحد الفرد لا يكون له تعلق إلا بذلك الواحد .

ويمكن أن يستشهد في هذا بقول ابن القيم :

كن واحدا في واحد ولواحد أعني طريق الحق والإيمان

كن واحدا في واحد : يعني في الطريق ، فإن طريق الحق واحد ، ولواحد : كن لله الواحد ، لا تكن عبدا لغيره .

وفي آخر القصة أنه لما قال هذه المقالة غشي عليه وصعق ، وهذا يحدث لبعض الصوفية . مسألة الغشي فيها كلام معروف لشيخ الإسلام وغيره ، وأن الغشي هذا ما هو بمشروع ، لكن الإنسان إذا غلبه الصعق والغشي يكون معذورا ، ولم يعرف الصعق والغشي من حال الرسل والأنبياء والكمل من المؤمنين والصحابة ، إنما عرف في بعض العباد السلاك .

غاية الأمر أن يكونوا معذورين في الصعق ، لا أن الصعق والغشي أمر ممدوح فيكون صاحبها أفضل ممن لا يحصل له ذلك ، هذا لا يصح ، وسيأتينا عبارات كثيرة ، وكأن المؤلف كان عنده نزعة تصوف ، ولهذا تراه يستشهد ببعض أقوال الصوفية والأشعار ، كما سيأتينا .

قال المصنف ، رحمه الله تعالى :

قوله : لا إله إلا الله ، تقتضي ألا يحب سواه ؛ فإن الإله هو الذي يطاع محبة وخوفا ورجاء ، ومن تمام محبته محبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه ، فمن أحب شيئا مما يكرهه الله ، أو كره شيئا مما يحبه الله لم يكمل توحيده ولا صدقه في قول لا إله إلا الله ، وكان فيه من الشرك الخفي بحسب ما كرهه مما يحب الله وما أحبه مما يكرهه ، قال تعالى : [ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم] [محمد : 28] .

قال الليث عن مجاهد ، في قوله تعالى : [لا يشركون بي شيئا] [النور : 55] ، **قال : لا تحبوا غيري ، وفي صحيح الحاكم ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : ((الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء)) .**

وأدناه تحب على شيء من الجور أو تبغض على شيء من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض ؟ قال الله تعالى : [قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله] [آل عمران : 31] **وهذا نص في أن محبة ما يكرهه الله وبغض ما يحبه متابعة للهوى ، والموالاة على ذلك والمعاداة عليه من الشرك الخفي .**

وقال الحسن : اعلم أنك لم تحب الله حتى تحب طاعته . وسئل ذو النون : متى أحب ربي ؟ قال : إذا كان ما يبغضه عندك أَمَرَّ من الصبر . وقال بشر بن السري : ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك . وقال أبو يعقوب النهرجوري : كل من ادعى محبة الله ولم يوافق الله في محبته فدعواه باطلة . وقال يحيى بن معاذ : ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده . وقال رويب : المحبة الموافقة في جميع الأحوال ، وأنشد :

ولو قلت لي مت بت سمعا وطاعة

وقلت لداعي الموت أهلا ومرحبا

ويشهد لهذا المعنى أيضا قوله تعالى : [قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله] ، وقال الحسن : قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إنا نحب ربنا حبا شديدا . فأحب الله أن يجعل لحبه علما فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ومن هنا يعلم أنه لا تتم شهادة لا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمداً رسول الله ؛ فإنه إذا علم أن لا تتم محبة الله إلا بمحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه ، فلا طريق إلى معرفة ما يحبه وما يكرهه ، إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم ، المبلغ عن الله ما يحبه وما يكرهه ، فصارت محبة الله مستنزفة لمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتصديقه ومتابعته .

ولهذا قرن الله بين محبته ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : [قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم] إلى قوله : [أحب إليكم من الله ورسوله] [التوبة : 24] ، كما قرن بين طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في مواضع كثيرة .

وقال صلى الله عليه وسلم : ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)) .

هذه حال السحرة لما سكنت المحبة قلوبهم سمحوا ببر نفوسهم ، قالوا لفرعون : اقض ما أنت قاض .

ومتى تفتأت المحبة في القلب لم تنبعث الجوارح إلا إلى طاعة الرب .

الشرح :

يقول المؤلف في هذه الجملة أن قول لا إله إلا الله يتضمن محبة الله ، فهذا حق ؛ فإن معنى لا إله إلا الله أنه لا معبود بحق إلا الله ، فهي تتضمن أنه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة ، والعبادة حقيقتها كمال الحب مع كمال الذل .

إذًا فقول لا إله إلا الله يقتضي أن يكون قائلها محبا لله ومحبا لما يحبه ، مما فطر الله عليه عباده ، أن محبة الحبيب تقتضي محبة ما يحبه بل وبغض ما يبغضه . ومحبة الله من مقامات الدين ، بل إن قول لا إله إلا الله كما أنه يقتضي محبة الله فإنه يقتضي خوفه ورجاءه ، فلابد من تصديق هذه الكلمة ، وتصديقها إنما هو بمحبة ما يحبه الله وبغض ما يبغضه ، فبحسب ما يكون بالقلب من محبة الله وصدق العبودية له تكون حال الإنسان في تعامله مع الأشياء ، فيحب ما يحب الله ويبغض ما يبغضه الله .

وأما العكس ، فأحب ما يبغضه الله ، أو أبغض ما يحبه الله ، كان ذلك مكذبا لدعواه المحبة ، أو دالا على نقص فيما يدعيه من المحبة . ومعنى هذا أن كمال التوحيد يقتضي محبة ما يحبه الله وبغض ما يبغضه الله ، من الأعمال والأقوال والأشخاص .

إذًا فمن لم يتحقق بهذا فلابد أن يكون عنده نوع من الشرك في المحبة ، فمن أحب شيئا مما يبغضه الله أو كره شيئا مما يحبه لم يكن محققا لمحبة الله ؛

.....

فإن محبة الله المطلقة التامة تقتضي محبة كل ما يحبه الله ومن يحبه الله ، وبغض ما يبغضه الله ومن يبغضه الله ، ومن ذلك محبة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فإن محبة الرسول هي من محبة الله ، ومحبة المؤمنين هي من محبة الله ، فهي فرع وتبع ، وقد قرن الله محبة الرسول بمحبته في كتابه قال : **[قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم]** إلى قوله **[أحب إليكم من الله ورسوله]** ،، وكذلك في الحديث : ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)) .

كما قرن بينه وبين الرسول في الطاعة ؛ فإن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم تقتضي طاعته طاعة مطلقة كطاعة الله ؛ لأن طاعة الرسول هي طاعة لله ؛ فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله ولا ينهى إلا بما نهى الله عنه ، أما غيره من الخلق فإنه قد يأمر بمعصية الله ، فلهذا قيدت طاعة المخلوق غير الرسول عليه الصلاة والسلام بالمعروف أو بغير المعصية كحديث ((إنما الطاعة في المعروف)) وحديث ((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)).

وتحقيق محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بمتابعته ، بل وتحقيق محبة الله بمتابعة الرسول **[قل إن كنتم تحبون الله فاتبعون]** ، فاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم هو البرهان ، وقد جاء في تفسير هذه الآية .كما أشار المؤلف . أنهم ادعوا محبة الله فامتحنهم بهذه الآية ، فتسمى هذه الآية آية (.....)

وأورد المؤلف جملة من أقوال بعض شيوخ الصوفية ، أبي يعقوب النهرجوري ، وذي النون وغيرهما ، وهؤلاء من أعلام الصوفية ، ولهم

.....

أقوال جيدة وحسنة ويستشهد بها شيخ الإسلام وابن القيم كثيرا ، وقدماء الصوفية وشيوخهم المتقدمون الغالب عليهم الخير وإن كان لهم أخطاء كغيرهم من الناس ، كل طائفة من أهل الدين من أرباب السلوك أو أرباب الفرق ، كل منهم فيهم المعتدل والمستقيم ، وفيهم من يكون عنده بعض الأخطاء في قوله أو في فعله ، والواجب : العدل في الحكم على الطوائف والجماعات والأفراد .

والمقصود أن المصنف رحمه الله ، يستشهد في هذه الرسالة ، وفي غيرها بأقوال أولئك الصوفية ؛ لأن عباراتهم الواردة صحيحة ، وأن العنوان على صدق المحبة هو الطاعة والوقوف عند الحدود ، ومحبة ما يحبه الله ، إلا أن الأمر لا يقف عند حد المحبة ؛ فالعبودية تتضمن المحبة والخوف والرجاء [**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه**] [الإسراء : 57] فلابد أن تقوم العبادة على هذه الأصول .

الصوفية ، بعضهم أو كثير منهم ، يبالغون في تعظيم مقام المحبة ، ولا يعظمون مقام الرجاء والخوف ، بل ربما استنقصوا مقام الرجاء والخوف ، وهذا من أغلاطهم ، كما يروى عن بعضهم : لا أعبد الله حبا ورغبة في جنته ولا خوفا من ناره ، بمعنى أنه لا يعبده إلا بدافع الحب ، وهذا غلط ؛ فالله تعالى أمر بخوفه ورجائه وأثنى على أوليائه بالخوف والرجاء [**إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين**] [الأنبياء : 90] .

لعل هذه المقدمة تنفع في ملاحظة ما سيأتي من استشهادات المؤلف من عبارات بعض أعلام الصوفية ، كما ذكره هنا ، لكن جملة ما ذكره هنا أن محبة الله

الصادقة تقتضي محبة ما يحب وبغض ما يبغض ، وأن خلاف ذلك قادح في المحبة ، بقدر ما يقع من تلك المخالفة ، وهذا كلام صحيح وحقٌ ، لا نزاع فيه .

قال المصنف ، رحمه الله :

وقال صلى الله عليه وسلم : ((ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى في النار)) ، هذه حال السحرة لما سكنت المحبة قلوبهم ، سمحوا ببذل نفوسهم ،

قالوا لفرعون : اقض ما أنت قاض ، ومتى تمكنت المحبة في القلب لم تنبعث الجوارح إلا إلى طاعة الرب ، وهذا هو معنى الحديث الإلهي الذي خرجه البخاري في صحيحه ، وفيه : ((ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها)) ، وفي بعض الروايات : ((فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي)) ، والمعنى أن محبة الله إذا استغرق بها القلب واستولت عليه ، لم تنبعث الجوارح إلا إلى مراضي الرب وصارت النفس ، حينئذ مطمئنة ، ففنيت بإرادة مولاها عن مرادها وهواها .

يا هذا ، اعبد الله لمراده منك لا لمرادك منه ، فمن عبده لمراده منه فهو ممن [يعبد الله على حرف إن أصابه خير اطمئن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة] [الحج : 11]

ومتى قويت المعرفة والمحبة لم يرد صاحبها إلا ما يريده مولاه ، وفي بعض الكتب السالفة : من أحب الله لم يكن شيء عنده آثر من رضاه ومن أحب الدنيا لم يكن شيء عنده آثر من هوى نفسه .

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن ، قال : ما نظرت ببصري ، ولا نطقت بلساني ، ولا بطشت بيدي ، ولا ظهرت على قدمي ، حتى أنظر على طاعة أو معصية ، فإذا كانت طاعة تقدمت ، وإذا كانت معصية تأخرت . هذا حال خواص المحبين ، فافهموا يرحمكم الله هذا ؛ فإنه من دقائق أسرار التوحيد الغامضة ، وإلى هذا المقام أشار صلى الله عليه وسلم في خطبته ، لما قدم المدينة ، حيث قال : ((أحبوا الله من كل قلوبكم)) .

وقد ذكرها ابن إسحاق وغيره ، فإن من امتلأ قلبه من محبة الله لم يكن فيه فراغ لشيء من إيرادات النفس والهوى ، وإلى ذلك أشار القائل بقوله :

أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك أن يحل به سواك

فلو أني استطعت غضضت طرفي .. إلى آخر الأبيات

متى بقي للمحب من نفسه حظ فما بيده من المحبة إلا الدعوى ، إنما المحب من يفنى عن نفسه كله ويبقى بحبيبه ، فبه يسمع ، وبه يبصر ، القلب بيت الرب . وفي الإسرائيليات يقول الله : ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبد مؤمن . فمتى كان القلب فيه غير الله ، فالله أغنى الأغنياء عن الشرك ، وهو لا يرضى بمزاحمة أصنام الهوى ، الحق تعالى غيور يغار على عبده المؤمن أن يسكن في قلبه سواه ، وأن يكون فيه شيء لا يرضاه . أردناكم صرفا ..... [أبيات من الشعر]

لا ينجو غدا إلا من لقي الله بقلب سليم ليس فيه سواه ، قال الله تعالى : [يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم] [الشعراء : 88 . 89] .

الشرح :

استشهد المؤلف في هذا المقام بأن كمال المحبة يقتضي كمال الطاعة ،

.....

وقد استشهد بالحديث الذي رواه البخاري ، من حديث أبي هريرة ، وفيه : ((لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها)) ، وفي رواية في غير الصحيح : ((فبي يسمع وبي يبصر ، وبي يبطش وبي يمشي)) ، وهذا الأمر يزيده اللفظ الأول ((كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره

الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها)) ، فالمحب الصادق والمؤمن الصادق تكون جميع تصرفاته لله وفي الله ، كما في الحديث ((من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استثبت))

((أحب لله)) بمعنى أنه لا يحب إلا لله ولا يبغض أحدا إلا لله ، وإن أعطى أعطى لله ، وكل بذل ما يبذله إلا لله ، حتى ما ينفقه على زوجته ، كما في حديث سعد رضي الله عنه : ((إنك لم تعمل عملا تبتغي به وجه الله إلا أجرت عليه ، حتى ما تجعله في في امرأتك)).

فأهل الإيمان يتابعون كل تصرفاتهم ، حتى الأمور الطبيعية العادية تكون لله ، إذا أنفق على أولاده ينفق عليهم محتسبا ، يراعي ما يجب عليه أوجب الله عليه من إحسانه إليهم ، وما يترتب على إنفاقه عليهم من إغنائهم كفايتهم ، وإعانتهم على ما ينفعهم ، وهكذا تكون أعماله كلها لله .

((ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته)) أي المحبة الكاملة ، وإلا فإن الله يحب كل مؤمن ، لكن محبته لأوليائه ليست على مرتبة واحدة أو على حد سواء ؛ فيها تفاوت وتفاضل **[تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض]** [البقرة : 253] **[ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض]**

.....

[الإسراء : 55] ، فالأنبياء والصالحون والمؤمنون متفاضلون .

يقول في الحديث : ((فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها)) فتكون أيضا أفكاره دائرة على الحق ، إذا كانت هذه حال الجوارح فحركة الجوارح تابعة لما في القلب ، وإنما تكون الجوارح متقيدة بهذه الحال بتقيد القلب بالعبودية لله ، بكمال

عبودية القلب لله ، حبا وخوفا ورجاء ، وهذا يعني أن المحقق لهذه العبودية والمحبة والإيمان لا يريد إلا ما يريده الله ، الإرادة الشرعية .

يقول المؤلف أو غيره : فيفنى بمراد الله عن مراده ، بحيث أنه لا تكون له إرادة إلا ما يكون بتحقيق مراد الله منه ، فالمحب الصادق هو الذي يعبد الله كما جاء في النص ، يعبد الله على مراد الله منه ، لا على مراده هو من الله .

فالإنسان يريد من الله كذا وكذا ، وهذه عبارة فيها ما فيها ؛ لأنه كما ذكرت فإن العبد يعبد ربه على وفق ما أراد الله منه ، وهذا لا يمنع أنه يريد من ربه المغفرة والجنة والنجاة من النار ، يريد من ربه أمورا ، والله تعالى قد أثنى على أنبيائه ورسله مع أنهم يريدون منه الرحمة ، يريدون منه الجنة والنجاة من النار **[تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا]** [السجدة : 16] ، **[إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين]** [الأنبياء : 90]

ولكن المذموم أن تعبد الله لما تريده منه من أمر الدنيا ، فهذا هو الذي يسقط عليه ما استشهد المؤلف من قوله تعالى : **[ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه**

خسر الدنيا والآخرة] [الحج : 11] ، يعبد الله على طرف من الدين ، غير متمكن منه ، فهو يعبد الله ما استقامت دنياه ، فإن أصابته فتنة أو مصيبة أو فقر أو حاجة انقلب على وجهه ، ومن يعبد الله لينال . أو ليعطيه . سعادة الدنيا ولا يريد الآخرة ، فهذا هو الذي ذمه الله بقوله : **[فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا]** آتنا في الدنيا ، هم يريدون المال والولد والجاه والشرف وأنواع المتاع

، **[فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وما له في الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار]** [البقرة : 200 ، 201] ، **[من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة]** [النساء : 134]

فلم يذم الله الذين يريدون الآخرة إنما ذم الذين يريدون الدنيا **[تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة]** [الأنفال : 67] .

وقال سبحانه وتعالى : **[ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا]** [الإسراء : 19] ، فإرادة ثواب الآخرة وإرادة الجنة هذه لا إثم فيها ، ولا نقص فيها ، ولا عيب على من يعبد الله محبة له وخوفا منه ورجاءً في ثوابه هذا ، وإلا لماذا ذكر الله لعباده الجنة والنار ، وذكر أمر الآخرة ؟ ترغيبا وترهيبا **[ذلك يخوف الله به عباده يا عبادي فاتقون والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى]** [الزمر : 16 ، 17] .